موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية

أ.د. محمد شامه

أقرت المجتمعات الإنسانية ـ على اختلاف مذاهبها السياسية والعقدية والاقتصادية ـ حق الملكية الخاصة، رغم ما بينها من تفاوت في تحديد مجال هذه الملكية، إذ يسود في كل بقاع الأرض مبدأ، أن ما للإنسان من متاع وأموال لا يجوز لأحد اغتصابه، فليس لإنسان كائن من كان أن يأخذ ما ليس له، وإن ساعدته الظروف على أن يأخذه عنوة، فإنه يظل في دائرة عدم الشرعية، فلا يقره قانون، ولا يرضى به ضمير الجماعة الواعي، المدرك للحدود الفاصلة بين حقوق الأفراد والجماعات، بل إن التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يعطي الانطباع بأن هناك أموراً لا يملكها الإنسان، ولا يجوز له ـ على الأقل في رأي أحد الطرفين المتنازعين ـ الاستحواذ عليها، أو الانفراد بمنفعتها دون الآخرين.

يسري هذا المبدأ على كل ما يحيط بالإنسان، وتحرص كل المجتمعات المتحضرة ـ بل والبدائية في غالب الأحيان ـ على تلقينه وتعليمه للأطفال، بل وتذكير الكبار به بين الحين والآخر، غير أن هناك مجالاً واحداً تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها، فلا يُحرَم منه إنسان، ولا يحول بينه وبين طالبه أحد بل أن صاحبه يحرص على أن يصل إلى كل الناس، بل يزداد سروره كلما رأي الجماعات البشرية تسعي للحصول عليه، ذلكم هو الإنتاج العقلي، وهو ما تسطره أقلام العلماء والفلاسفة، هو العلوم الإنسانية بجميع فروعها، فالعلم ـ كما قالوا ـ لا وطن له، وصاحبه لا يحرص على احتكاره، لأن من طبيعته الانتشار، ومن لوازمه أن يصل إلى

الناس. فهو لا يخرج من منطقة الإبداع في الإنسان ـ سواء كان ذلك في صورة التعليم والتلقين الشفهي، أو مسطوراً بالقلم ـ إلا بقصد توصيله للآخرين، وانتفاعهم به وتصرفهم فيه تصرفاً مطلقاً ، فلا أحد يُحرمُ عليه استعمال نتائجه في جميع مجالات حياته، وما نسمعه اليوم من تحريم نقل التكنولوجيا. وهي من نتاج العلم المشاع بين الناس جميعاً ـ من وطنها إلى الأوطان الأخري فلا يمثل القاعدة التي يجب أن يكون عليها وضع إنتاج العقل البشري، من أنه يجب أن يكون في متناول كل بني الإنسان، لأن هذا الإجراء ـ وهو تحريم انتقالها ـ يمثل حجر عثرة في سبيل تقدم الشعوب. لجأ إليه أناني لا يحب إلا بني جلدته، أو جبار يريد أن يسيطر بامتلاكه لهذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخري، ويُحَدد مصائرها، أو مستغل يميل إلى أن يمتلك وحده ما يُدرُّه هذا الجانب من أموال مضحياً في سبيل ذلك بالقضية التي تهم البشرية جمعاء ألا وهي العمل على تقدم كل المجتمعات الإنسانية حتي لا تظل الفجوة بينها عميقة.

ورغم القيود التي وضعها أمثال هؤلاء الناس أمام انتشار الإنتاج العلمي، فإن طبيعة وضعها في حياة الأمم والشعوب سوف تتغلب على هذه القيود؛ لأن الانتشار خاصية من خواص العلوم فلا بد أن تكون الغلبة لها.

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتجاهات الفكرية، فتقيمَ الحواجز بينها وبين انتشارها بين المواطنين، وتتخذ من الإجراءات ما يحول بين الناس وبين معرفة هذه الاتجاهات، إما خوفاً على عقيدتها، أو حفاظاً على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية في بلدها. لأنها ترى أن هذه الأفكار ستقوض من سلطانها على نفوس الناس، فذلك أيضاً وضع غير طبيعي ـ خاصة في عصرنا الحالي حيث ذابت الحواجز الثقافية والإعلامية

بسبب التقدم الهائل في مجال الاتصالات اللاسلكية سواء كانت مسموعة أو مرئية ـ ينبغي تركه، كي يعود الأمر إلى وضعه الطبيعي ويأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقه السليم.

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المختلفة أمام الإسلام لم نجد فيه إلا حثاً على طلب العلم وتعليمه، وتحذيراً من كتمان الحكمة والرأي الذي فيه نفع للناس، ففي مجال طلب العلم يقول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمه» ويقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين» ويقول: «الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها» كما ينفي القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم فيقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (١).

وفي مجال وجوب تعليم الآخرين حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من كتموا الحق، لأن من يفعل ذلك يصيبه ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (٢).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ (٣).

هذا هو موقف الإسلام من قضية العلم والتعليم، لا يحرم على المسلمين

(١) الزمر : الآية ٩.
(٢) آل عمران : ١٨٧.
(٣) البقرة : ١٥٩.

تَعَلُّم أفكار الآخرين ولو بعدت أوطانهم، ويحذر من احتكار الإنتاج العقلي، لأن مبادءه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلاً مباحاً لكل الناس.

أثر هذا الاتجاه على المسلمين، فانطلقوا يغرفون من منابع العلم في كل مكان، لا يمنعهم جنسيته أو عقيدته، فأخذوا من الفرس والأغريق وغيرهما من شعوب الأرض على اختلاف نزعاتهم وتعدد أفكارهم، ويعنينا هنا أن نتحدث عن موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية.

بدأ الاتصال بين العرب والثقافة اليونانية قبل الإسلام، إذ عندما أُغلقت مدارس الفلسفة في أثينا واضطهد الفلاسفة، فر مجموعة منهم صوب الشرق ولعبوا دوراً كبيراً في ازدهار المدارس الفلسفية التي نشأت في الشرق، وخَلَفَت مدارس اليونان في حمل الفلسفة اليونانية، كان العرب قبل الإسلام على اتصال بتلك المدارس، إذ قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وما حوله فاتصل بثقافتهم بعض المهتمين بالثقافة من العرب مثل الحارث بن كلدة، ومن بعده ابنه النضر بن الحارث الذي يَحكي عنه ابن أصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» بأنه أطلع على الفلسفة وأجزاء الحكمة.

كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة بصورة قاطعة أن مراكز البحث الفلسفي كانت منتشرة في العالم القديم الذي فتحه المسلمون، وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمي بعد الفتح الإسلامي، بل استمر الإتصال بها في ظل الدولة الإسلامية، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من أعلم قريش بفنون العلوم، وكان له كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين، متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مِريانوس، وله فيها ثلاث

رسائل تضمنت إحداها ما جري له من مريانوس، وصورة تعليمه منه، والرموز التي أشار إليها.

ويقول ابن النديم: «أن خالداً عني باخراج كتب القدماء في الصنعة، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، ولا ننسي أن المدارس الفلسفية في أنطاكية وحران والرها ونصيبين استمرت في تأدية عملها العلمي في ظل الدولة الإسلامية، كما لا ينسي أحد ما بذلته الدول الإسلامية من جهود في مجال ترجمة التراث اليوناني، بل لا ينبغي لأحد أن ينكره أو يتناساه، لأنه عمل عملي لم يحدث مثله في تاريخ البشرية قاطبة».

ومن هذا نرى أن الثقافة اليونانية كانت محل عناية المسلمين في الأقطار المختلفة، أخذوا منها وتعلموها، حتي ممن لم يكن على دينهم، بل إنهم تعلموا منها ما لم يوافق دينهم فيذكر ابن كثير أن علوم الأوائل ـ أي الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الإسلامي ـ نقلت في المائة الأولي ثم يزيد هذا الكلام توضيحاً ما ينقله إلينا الشيرازي في كتابه «الأسفار الأربعة»: أن المتكلمين الأوائل في عهد بني أمية عرفوا الفلسفة اليونانية حين نقلت بعض كتبها إليهم ويقول: إن هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التى عرفوها، وجعلوها أساساً لفلسفتهم.

ويلاحظ الباحثون في كتابات المتكلمين الأوائل من أمثال أبى الهذيل العلاف، وهشام بن الحكم وغيرهما معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية وتناولا لمصطلحات فلسفية مما يدل على أن الاتصال بين المسلمين وبين الثقافة اليونانية كان قوياً مؤثراً على الحياة العقلية في المجتمع الإسلامي.

فقد وجدت في ظل الدولة الإسلامية مدارسُ للفكر اليوناني كانت استمراراً لمدارس ما قبل الإسلام، كما نجد في ظل الدولة الإسلامية حَمَلَةً للفلسفة كانوا خلفاء الاغريق ومن أتوا بعد الأغريق من الرومان والمصريين.

أصبحنا نجد بعد انتشار الإسلام دينا هو الإسلام بجوار فلسفة وحدة سياسية واحدة، وأصبحنا نري أيضاً مجالس لتعليم الدين الإسلامي، وللتتلمذ في فهم القرآن والسنة بجوار مجالس أخري للعلم اليوناني والفلسفة اليونانية.

فما هي يا تري أسباب قبول الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية؟

أهو الميل العقلي وحده لدي بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة، كان السبب في قبول هذا البعض للآراء الإغريقية الإلهية لأنها وليدة العقل الإنساني؟

أم هناك شيء آخر وراء هذا الميل دفعهم إلى قبولها؟

إذ الرغبة العقلية لدى إنسان ما تساعد فحسب على تناوله عملاً عقلياً، وعلى النظر فيه، وعدم طرحه بادىء ذي بدء، ولكنها قد لا تكفي وحدها في تعليل قبوله لهذا العمل العقلي والحرص عليه، أو التأثر به.

فوجود هذه الرغبة سبب مهيىء فقط للقبول. وقبول المسلمين نفسه للآراء الإغريقية حينئذ ليس لأن من قبلها منهم كان ذا ميل عقلي فحسب بل لأسباب أخري أهمها: الدقة التي كان عليها المنطق الأرسطي وغيره من العلوم الرياضية، وأثر هذه الدقة في نفوس المسلمين العرب التي لم تألف قبل ترجمتها إلا أسلوب الإقناع، ولم تتعود إلا سعة الخيال ومرونته، وتموجه في التصوير.

ولكن رغم هذا الاقتناع بهذه الدقة جذبهم إلى الاعتقاد في عصمة العقل الأغريقي في المجالات الأخرى، فدافعوا عنه بكل الطرق، وفي هذا يقول الغزالي: «وقد تولد عنها [أي العلوم الرياضية] أن من نظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح وثاقة البرهان كهذا العلم».

كانت هذه الدقة أشبه بإغراء العقل الإسلامي على الإقدام على قبوله للناحية الإلهية والإنسانية من الفلسفة الإغريقية دون التفكير والتوضيح ومحاولة التوفيق بينها - وخاصة فيما يتعلق بالإلهيات - وبين العقيدة الإسلامية. وقد اشتهر بهذا العمل الفارابي حتى أطلق عليه «الموفق والشارح»، وكان متأثراً في عمله هذا بمدرسة الإسكندرية، ومن المعروف أنه بعد أن نقلت الفلسفة من أثينا وروما إلى الإسكندرية انصب العمل الفلسفي في الفترة التي عاشت فيها الفلسفة في مدينة الإسكندرية في السبعة قرون الأولى بعد الميلاد على التوفيق والانتخاب، وهو توفيق وانتخاب من مدارس فلسفية إغريقية، وضم المنتخب بعضه إلى بعض في وحدة واحدة مع ملاءمة بينه وبين ديانة شعبية، أو بينه وبين المسيحية.

وعندما نُقل مركزُ الفلسفة من الإسكندرية إلى أنطاكية، ثم إلى بغداد كانت الفلسفة المنقولة عبارة عن مزيج:

١- من عدة مدارس اغريقية، وبالأخص من مدرستي: أفلاطون، وأرسطو.

٢- ومن ديانة أخري شرقية، أو مسيحية.

وإذا قلنا أن طابع الفلسفة المنقولة كان مزيجاً م والأرسطية والرواقية والتصرف الشرقي لم يكن ذلك القوا الواقع تُمَثِّل كلٌ هذه المدارس، وكل الاتجاهات الثقافية ، ودينية، ووثنية.

وعندما وصلت الفلسفة عن طريق المدارس المسيحية إلى المسلمين وصلت إليهم وهي تجمع كل هذه العناص إليهم مغلفة بغلاف آخر. وصلت إليهم وقد علتها مسحة وفيها تأييد «بوحدة الأول» وبساطته، ولهذا سر بها ا وقدروا فيها «عصمة الحكمة».

ومن أجل ذلك أيضاً استبعدوا أن يكون للحكم يتعارض مع الإسلام طالما يقولون «بالوحدة» في العلة الأ الزهد طريقاً لسعادة الإنسان وإن أَعْطى ظاهرُ عباراتهم ما ي في بعض الأحيان.

ولأن المسلمين استبعدوا هذا القصد من الإغريق حاول أفلاطون وأرسطو عندما تبدو بينهما معارضة، كما ه فلسفتهما من جهة، والإسلام من جهة أخري، أن أعد في الجانبين نوعاً من التضارب بينهما: والفارابي واحد مر المسلمين الذين ظنوا "الحكمة" فيما نقل إليهم من الفلسف اعتقدوا: أن عظماء الحكماء من الإغريق يكاد يستحي فيما يقولون وأن حكمتهم يستحيل عليها أيضاً: أن ت علما بأن ما نقل إليهم ينطوي في واقعة على التضارب

١- ومن ديانة أخرى شرقية أيضاً عديدة كما بيّنا ذلك منذ قليل، وهو ليس إلا مغطي ببر

إذا قلنا أن طابع الفارابي الحقيقي هو الفيلسوف المسلم، فإن هذا لا يعني بالتأكيد أن مزيجا من الأفلاطونية

طية والرواقية والتصرف الشرقي لم يكن ذلك القول غريبا فيه. ولحسن ظن الفلاسفة المسلمين - ومنهم الفارابي - بالفل

تمثل كل هذه المدارس وكل الاتجاهات الثقافية ما بين انسانية وثنية. وليقينهم بعدم تضارب الفلسفة مع الإسلام، دخلوا الت

الأخص الفارابي - على أساس "الجمع" بين الآراء الفلس

عندما وصلت الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي كانت مختلطة بعض الشيء بالأديان الأخرى. فيما يبدو لنا

سلمين وصلت إليهم وهي تجمع كل هذه العناصر. لكنها وصلت

مغلفة بغلاف آخر. وصلت إليهم وقد عرتها مسحة صوفية شرقية

التوفيق، ولذا سأكتفي بذكر مثال واحد، ألا وهو التدليل ع

تأييد «بوحدة الأول، وبساطته. ولهذا سر بها المسلمون أول الأمر

ففي هذا المجال يستعير الفارابي من الأفلاطونية الحد

فيها «عصمة الحكمة»

يسمي «بالجدول النازل» و«الجدول الصاعد» وفي الحديث ع

من أجل ذلك أيضاً بآية قرآنية أو هو كقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِ

ر مع الإسلام طالما يتبين لهم أنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِ

طريق لسعادة الإنسان وإن أعطى ظاهر عباراتهم ما يفيد هذا التعارض

ونص حديثه:

ل الأحيان.

لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه آيات الصّنعة،

لأن المسلمين استبعدوا هذا القصد من الإغريق حاولوا أن يوفقوا بين

عنه وتلحظ عالم الوجود المحض، وتعلم أنه لابد من وجود

ن وارسطو عندما تبدو بينهما معارضة. كما حاولوا التوفيق بين

بما من جهة. والإسلام من جهة أخرى. أن أعطى ظاهر النصوص

فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد.

نين نوعاً من التضارب بينهما وإن اعتبرت عالم الوجود فأنت النازلة

ن الذين ظنوا "الحكمة" فيما نقل إليهم من الفلاسفة الإغريقية والذين

تعرف بالنزول: أن ليس هذا ذاك.

. أن عظماء الحكماء من الإغريق يكاد يستحيل عليهم التضارب

وتعرف بالصعود: أن ليس هذا هذا.

ورون وأن حكمتهم يستحيل عليها أيضاً أن تختلف مع الإسلام.

(٢) فصلت: ٥٣.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وكأن الفارابي يقول : هناك دليلان على وجود الله :

الدليل الأول: أن ننظر إلى المخلوقات أو إلى ما يسميه هو بعالم الخلق، وهو عالم يأتي بعد عالم الأمر أو عالم الملائكة ، وقبل هذا يكون عالم الربوبية ، أو عالم الوجود الإلهي فتشهد في المخلوقات صنعة تدل على صانع لها وهذا الصانع هو الله تعالى.

وهذا الدليل هو دليل تصاعدي: ينتقل من عالم الخلق إلى الأعلى وهو عالم الوجود الإلهي.

الدليل الثاني:

أن تنظر إلى «الوجود المحض» أي إلى الوجود من حيث هو وجود فنصل من هذه النظرة إلى أن هناك واجب الوجود لذاته وهو الله تعالى، وهو السبب في وجود الممكن، والممكن هو ما بعد الله من عوالم. هو عالم الأمر أو الملائكة ، وعالم الخلق أو المخلوقات وبالأخص الإنسان.

وهذا الدليل على وجود الله دليل تنازلي لأنه من وجود واجب الوجود بذاته : يعرف عالم المخلوقات.. والعقل إذن في هذا الدليل ينتقل من الأعلى وهو واجب الوجود بذاته أو الله.. إلى الأدني وهو وجود واجب الوجود بغيره، أو المخلوقات.

ثم يجعل الآية التي استشهد بها هنا تعطي الطريقين في الجدل وهما:

الصاعد ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

يشير في تقديره إلى الجدل الصاعد. فأمارات الله في عالم

المخلوقات، وفي النفوس البشرية تعطي الدليل على وجود الله الحق، فهي صنعة، وكل صنعة لا بد لها من صانع، والصانع هو الله تعالي:فهو دليل من الأدني على الأعلى، دليل المخلوقات على الله، وعالم المخلوقات تجلى لوجود الله، فكأنه هو هو.

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يشير في تقديره أيضاً إلى الجدل النازل، وهو الاستدلال بوجود الله على وجود عالم المخلوقات فالله هو الخالق وأمارة خلقه في وجود هذا العالم، فوجوده شهيد على وجود غيره، وهذا دليل من الأعلى على الأدنى والوجود الأعلى غير الوجود الأدنى: ليس هذا .ذاك، وهذا التركيب الفلسفي للفارابي يتكون من عناصر ثلاثة:

أ) العنصر الأرسطي، وهو عنصر الواجب بذاته، والممكن بذاته، وصلة كل منهما بالآخر.

ب) العنصر الأفلاطوني الحديث وهو عنصر توجيه الاستدلال بكل منهما على الآخر: على أن يكون مرة من الأعلى إلى الأدنى، ومرة أخري على العكس: من الأدنى إلى الأعلى مع تسمية وجه منهما بالجدول النازل، والآخر بالجدول الصاعد.

جـ) العنصر الإسلامي وهو ما جاء في الآية القرآنية.

والتوفيق الذي ينسب هنا هو احتواء الآية بعلة الفلسفي على مضمون العنصرين الأولين وكأن هذين العنصرين يكونان معني الآية القرآنية .وكأن القرآن في اعتباره يترجم عن الفلسفة وعملية التوفيق هي: عملية

«مقدم» و«تال» في قياس منطقي أرسطي.

يجب ألا ينسي الباحثون في هذا المجال أن عمل الفارابي ـ ومن نحا نحوه من الفلاسفة المسلمين ـ لا يمثل إلا جانباً من جوانب الفكر الإسلامي إذ من المعروف أن جمهرة علماء المسلمين لم يوافقوه على هذا المنهج حتي الذين قبلوا الفلسفة اليونانية استثنوا منها الجانب الإلهي، لأنه لا يتفق مع العقيدة الإسلامية. وليس معنى أنهم لم يقبلوا هذا الجانب من الفلسفة اليونانية أنهم حاربوا من يتعلمها، أو تعقبوه في رزقه أو عمله لا.

وما يحدثنا به التاريخ من حرق كتب بعض الفلاسفة واضطهادهم فليس إلا حوادث استثنائية قام بها مجموعة لا تعرف فقه الإسلام في مجال حرية الفكر، لأن حرب الفكر واضطهاده ليس من طبيعة الإسلام فهو الداعي إلى شد الرحال للتعلم ولو بالصين، فالعلم في المجتمع الإسلامي كلأ مباح للجميع، لا يمنع عنه أحد، ولا تقيد حريته في البحث، لكن هذا لا يمنع أن تقوم مجالات فكرية حول ما يتنافي مع المبادئ الإسلامية وذلك أمر لا يتنافي مع طبيعة الفكر البشري، فإنه يتصارع ويتناطح في حدود مجال الجدل الفكري، وهذا هو ما حدث في المجتمع الإسلامي بالنسبة لمن رفضوا بعض جوانب الفلسفة اليونانية وأشهر مثل على هذا ما قام به حجة الإسلام الإمام الغزالي فقد صنف الفلاسفة إلى دهريين وطبيعيين وإلهيين، ثم قال:

الصنف الأول: الدهريون وهم طائفة من الأقدمين: جحدوا الصانع المدبر. العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا وهؤلاء هم الزنادقة.

والصنف الثاني: الطبيعيون وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشرح أعضاء الحيوانات.

ثم بعد أن يبين دقائق بحثهم يحكم عليهم بالزندقة أيضاً معللاً ذلك بأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر.

وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله وصفاته، ثم يذكر أن الصنف الثالث وهم الإلهيون ردوا على الصنفين الأولين من الدهريين والطبيعيين وأوردوا في الكشف عن أخطائهم ما أغنوا به غيرهم عن القيام بهذا العمل، إلا أنه يقول أنهم ـ الإلهيين ـ استبقوا أيضاً من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفقوا للتخلص منها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما.

وعلى الرغم من أن الغزالى رمي الفلاسفة كلهم بالكفر والزندقة ـ سواء كان ذلك بسبب انحراف مذهبهم كله، أو بسبب انحراف بعض آرائهم في نظره ـ إلا أنه حين تعرض لفروع الفلسفة من: رياضة ومنطقية، وطبيعية، وإلهية وسياسية، وخلقية، فإنه قبل جميع فروعها جملة ـ وإن هاجم بعض الاتجاهات في كل فرع ـ إلا فرع الإلهيات، فقد ذكر أن فيه أكثر أغاليط الفلاسفة، وأرجع أخطاءهم في هذا الفرع إلى عشرين، كفرهم في ثلاثة فقط وهى قولهم:

١ـ أن الأجساد لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة والعقوبات روحانية لا جسمانية.

٢ـ وقولهم أن الله تعالي يعلم الكليات دون الجزئيات.

٣- وقولهم بقدم العالم وأزليته.

معللاً ذلك بأن أحداً من المسلمين لم يذهب إلى شيء من هذه المسائل الثلاث.

هذه الحَمْلة التي قادها الغزالي ضد الفلسفة والفلاسفة، أن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأمر لم يتعد مجال الجدل الفكري بدليل أن الفلسفة بقيت في المجتمع الإسلامي، وظلت تدرس في جامعاته ومدارسه بعد الغزالي، ولم تزل تدرس حتي اليوم، مما يعطي انطباعاً بأن المسلمين لم يقفوا من الفكر الأجنبي موقف الرافض المعارض لتعلمه، المحارب له بأساليب خارجة عن نطاق المعارضة الفكرية، وهذه هي روح الإسلام:

حرية في الفكر، تعلما ونقاشا وتحليلاً، ومحاورة ومعارضة الحجة بالحجة، فما يحمل من الأفكار خاصية الثبوت والدوام بقي في المجتمع ورسخ فيه، وما كان مهلهل الصورة، ضعيف البنيان، ذهب واندثر، وتلك سنة الله في خلقه فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

مراجع البحث

١- الغزالى: المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود.

٢- محمد البهى: الجانب الإلهى من التفكير الإسلامي

٣- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية

٤- ألبير ريفو: الفلسفة اليونانية، أصولها وتاريخها، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود وأبو بكر زكرى

٥- أحمد أمين، زكى نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية.

٦- أحمد أمين، فجر الإسلام.

٧- على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام.